الاطروحات الاستعمارية في فكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي

The colonial theses in the thought of Sheikh Abdul Aziz Thaâlbi

Les thèses coloniaux à la pensée du cheikh Abdul Aziz Thaâlbi

طرفاوي أحمد [1*]

تاريخ الإرسال: 2019/04/09 تاريخ القبول: 2020/01/08 تاريخ النشر: 2020/12/30

ملخص:

هذا المقال يسلط الضوء على احدى الجوانب المتعلقة بفكر المصلح التونسي الشيخ عبد العزيز الثعالبي (1875–1944) والمتعلقة أساسا بموقفه من الاطروحات الاستعمارية، وقد تطرقنا الى هذه المسألة من حيث توضيح انتقاداته لنظرية تخلف المنطقة المغاربية وحتمية خضوعها للاستعمار، وكشفنا عن الاعتراضات التي قدمها لتفنيد دعاوى الغربيين المشككة في أصول وهوية سكان المنطقة، كما تطرقنا كذلك الى قضية مناهضته لمشروع الاستعمار الصهيوني في فلسطين.

الكلمات المفتاحية: عبد العزيز الثعالبي ؛ استعمار ؛ أطروحات استعمارية.

Abstract :

This article highlights one of the aspects related to the thinking of the Tunisian reformer Sheikh Abdul Aziz Thaâlbi (1875-1944), which is mainly related to his position on colonial theses. We have discussed this issue to clarify his criticism of the theory of the delay of the Maghreb population and the inevitability of its colonialism. We have pointed out the objections he had made to refute the claims of Westerners who questioned the origins and identity of the Maghrebians, and we also discussed the question of his colonial anti-Zionist project**.**

Keywords: Abdul Aziz Thaâlbi; colonization ; colonial theses**.**

Résumé :

Cet article met en lumière l'un des aspects liés à la pensée du réformateur tunisien Cheikh Abdul Aziz Thaâlbi (1875-1944), qui est principalement liée à sa position sur les thèses coloniaux. Nous avons discuté de cette question pour clarifier ses critiques sur la théorie du retard de la population du Maghreb et sur le caractère inévitable de son colonialisme. Nous avons souligné les objections qu'il avait faites pour réfuter les affirmations des Occidentaux qui remettaient en question les origines et l'identité des Maghrébins, et nous avons également discuté de la question de son projet colonial antisioniste.

Mots clés : Abdul Aziz Thaâlbi; la colonisation; thèses coloniaux.

*المؤلف المراسل

TARFAOUI Ahmed, School of Bouzareah-Mubarek Ben Muhamed El-Mili, Bouzareah, Algeria, E-mail: aboumoh17@gmail.com,

مقدمة

عُرف الشيخ عبد العزيز الثعالبي (1875–1944)، منذ وقت مبكر من حياته بدوره والسياسي والإصلاحي في تونس والعالم الاسلامي عامة، وكانت بداية نشاطه في تونس، حيث أسس عام 1895 جريدة "سبيل الرشاد"، وكانت إسلامية المنهج (Bessis, 1997, p. 11)، ومع مطلع القرن العشرين انضم إلى حركة الشباب التونسي (Julien, 1967, pp. 87-150) ،وكانت إيديولوجية تلك الحركة في إطار الجامعة الإسلامية (Djait, 1975, pp. 51-53) ، وبعد الحرب العالمية الاولى ساهم بمعية النخبة التونسية في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي (مناصرية، 1988، صفحة 83) ، وعُرف أيضا بإنتاجه الفكري، حيث تمحورت افكاره حول قضايا الشرق والغرب، والظاهرة الاستعمارية، وبخصوص هذه الاخيرة نجد ان الثعالبي الشيخ قد تكفل بالرد على تلك النزعات الفكرية الاستعمارية، والتي كانت تهدف إلى إرساء أسس النظام الاستعماري والدفاع عنه ، وكان لتنامي النزعة الصهيونية قد شغل أيضا اهتماماته الفكرية، فما هي طبيعة المواقف والردود التي بلورها الشيخ الثعالبي تجاه تلك الأطروحات؟.

1– رده على نظرية تخلف سكان المنطقة المغاربية وحتمية خضوعها للاستعمار

من بين أهم النظريات التي تعرض لها الشيخ عبد العزيز الثعالبي بالدراسة والنقد هي نظرية تخلف الشعوب المغاربية، وعجزها عن تسيير شؤونها بنفسها، وبالتالي حاجتها لدولة أخرى متقدمة تمد لها يد المساعدة وتعمل على تمدينها، وهذا الافتراض يهدف في نهاية الأمر إلى تكريس مبدأ الرسالة الحضارية للنظام الاستعماري، وبالتالي تضفي على هذا الأخير طابع الشرعية والحتمية التاريخية لتقدم البشرية.

ومن باب التعريف بهذه النظرية، واعتمادا على النموذج التونسي، أورد الثعالبي في قوله: ((أما النظرية الرسمية الوحيدة التي تعبر عنها الحكومة الفرنسية تجاه العالم المتمدن مع الاعتراف بأنها الوحيدة التي يمكن التصريح بها فهي تتمثل في الإشارة إلى أن الشعب التونسي غير قادر على تسيير شؤونه بنفسه وأن فرنسا المعروفة بالإيثار والتي تسرع إلى الدفاع عن القضايا البشرية قد تولت السهر على حظوظنا لحمايتنا من ضعفنا ذاته وتحملت مؤقتا الاضطلاع بالسلط الاجتماعية التي ستردها إلينا عندما نبلغ الرشد)) (الثعالبي، 1984، صفحة 290)، ويقول أيضا: ((لقد حكم علينا في سنة 1881 في نظر أوربا –المتمدنة– بأننا غير قادرين على توفير السعادة لأنفسنا وعندما احتلت فرنسا بلادنا عسكريا منحت لنفسها حق التصرف في مستقبلنا السياسي والاجتماعي مع حق الإشراف على حظوظنا الاقتصادية)) (الثعالبي، 1984، صفحة 119) .

وبالعودة الى أدبيات المدرسة التاريخية الاستعمارية فاءن تلك النظرية يجسدها المؤرخ " ايميل فليكس جوتييه"(Émile-Félix Gautier)(1864– 1940) في كتابه "ماضي شمال إفريقيا" (Le passé du l'Afrique du nord)،

حيث حكم على سكان شمال إفريقيا بالعقم الحضاري، وعجزهم عن تكوين دولة مستقلة عبر مختلف حقب التاريخ (مالكي، 2007، الصفحات 165-208) ، وسار على نفس النهج المؤرخ الفرنسي ستيفان قزال (Stéphane Gsell) (1864-1932) في كتابه "(Histoire ancienne de l'Afrique du nord) اي "التاريخ القديم لشمال إفريقيا" قد روّج لفكرة أن منطقة الشمال الافريقي لا تمثل وحدة متجانسة ولم يكن لها في يوم من الأيام وحدة سياسية ((فأهلها كانوا غير قادرين على جمع كل قواهم في كتلة واحدة وعلى تأسيس إمبراطورية وعلى خلق حضارة خاصة بهم، ولذلك تقبلوا أو تحملوا السيادات المادية والتأثيرات الاخلاقية التي تقدمت ايهم على التعاقب)) (ستيفان، 2007، صفحة 55).

وفي رد الثعالبي على تلك النظرية والتي بررت الاستعمار الفرنسي على تونس من خلال فرض نظام – الحماية – بموجب معاهدة باردو عام 1881 (حول نص المعاهدة أنظر: (E. Rouard, 1906, p. 232) نجده يقيم الحجة على بطلان ذلك من حيث أنّه بحثَ عن الدّلائل والشّواهد التّاريخية التي تثبت الوجود الحضاري والتنظيم السياسي والاجتماعي لأمة ذات سيادة، فقد عرج على مختلف مراحل الإصلاح السياسي الحديث الذي حصل في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو الإصلاح الذي أقر المبادئ السياسية الحديثة القائمة على الحريات السياسية والحياة الدستورية والنظام البرلماني (الثعالبي، 1984، الصفحات 17-37) ، وأبرز ما صاحب ذلك من إنجازات، وخاصة في ميدان التعليم من خلال إصلاح جامع الزيتونة، وإنشاء المعهد الصادقي 1875 الذي اهتم بتعليم العلوم العصرية، وإلى جانب الدَّوْر الذي كانت تقوم به المدارس الإيطالية والفرنسية (الثعالبي، 1984، الصفحات 57-63) ، بالإضافة إلى التطور الاقتصادي الذي شمل ازدهار الزراعة و التجارة ومشاريع الطرق المعبدة والسكك الحديدية وميناء حديث في مدينة تونس (الثعالبي، 1984، الصفحات 116-119) .

وكان تركيز الثعالبي على هذه المسائل من أجل إثبات أن تونس كانت تسير وفق الأسس العصرية التي كانت عليها الدول الأوربية، وهذا ينفي عنها حالة القصور والتخلف من منظور الفكر الغربي الاستعماري، وكان يرى أيضا أن الكشف عن حقيقة البلاد التونسية ونهضتها وتقدمها قبل الاحتلال الفرنسي يعدُّ أمرا ضروريا لإقامة الحجة على هذا الاستعمار، وليكذّب الادّعاء الذي تردده فرنسا من تأخر تونس وحاجتها إلى أن يمدنها الاحتلال.

ومن أجل إبطال فكرة التفوّق الحضاري للغرب على الشرق ونفي النظرية القائلة بان الحضارة منبعها الغرب اليوناني واللاتيني جاء اهتمامه بحضارة الفينيقيين و إبراز دورهم الحضاري في العالم القديم (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، الصفحات 13-25) ، وكذلك هو الشأن بالنسبة لاهتماماته بمختلف الحضارات الشرقية القديمة في جزيرة العرب وبلاد الرافدين، من حيث إبراز أهميتها وفضلها على الحضارات الغربية القديمة، بخصوص هذه المسألة تحدث الثعالبي بإسهاب عن تأثر اليونان بالحضارة المصرية القديمة والحضارة الفنيقية وخصص لذلك قسما بعنوان: " تأثير الروح العربية في اليونان" (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، صفحة 108)،وبيّن أيضا بأن الفرنسيين اخذوا من

تجارب التونسيين في زراعة الزيتون التي كانت تشهد ازدهارا كبيرا قبيل الحماية ، واستدل على ذلك بما ورد في النشرة الرسمية للبلاد التونسية الصادرة عام 1896 (الثعالبي، تونس الشهيدة ، 1984، صفحة 168).

ومن جهة أخرى يُلاحظ أنه لم يتوقف عند هذا الحد بل حرص على إثبات أن الاستعمار يتنافى تماما مع الحضارة ومن ذلك قوله: ((إذا كانت الوصاية المفروضة على بلادنا ترمي حقيقة إلى هدف وحيد ونزيه للغاية ألا وهو الارتفاع بنا إلى "مستوى الشعوب القادرة على أن تحكم نفسها بنفسها "، وهو ما يطيب للحكومة والبرلمان بفرنسا الإعلان عنه وكما تصرح بذلك معاهدة الحماية، ...فإن النظام المسلط علينا لا يقوم إلا على حساب كرامتنا وبواسطة القهر والإرهاب والظلم وهي وسائل عادية محتومة بالنسبة للنظم المقامة على التعسف والاستبداد)) (الثعالبي، تونس الشهيدة ، 1984، صفحة 291) ، وجاء في قوله أيضا: ((إنه لا يمكن دفع الناس إلى تقدير الحضارة الفرنسية بواسطة القسوة والنهب والظلم التي أصبحت من مؤسسات الدولة، فمن خلال الأشخاص الحقيرين الذين اكتسحوا بلادنا نتصور الشعب الفرنسي كشعب يضم الجائعين والنهابين ... نتصور ان للحضارة الفرنسية مفهوما غريبا عن النزاهة والشرف وانها حضارة فاسدة لا تليق بنا)) (الثعالبي، تونس الشهيدة ، 1984، صفحة 282) .

وإذا كان التاريخ القديم لمنطقة شمال إفريقيا مدخلا لمؤرخي المدرسة الاستعمارية أمثال "ستيفان غزال"، "ارنست فليكس غوتيه"، "غبريال كامبس"،" أرنست مرسييه"، "جيروم كاركوبينو"، "روبير مونتاني" والذين أسسوا لنظريات وأطروحات تضفي الشرعية والطابع الحضاري للاستعمار الفرنسي للمنطقة (مالكي، 2007، صفحة 186)، فان اهتمام الثعالبي بالتاريخ القديم للمنطقة المغاربية يندرج في إطار الرد على هذه الأطروحات، حيث نشر عدة مقالات تاريخية في جريدة الإرادة التونسية تحت عنوان "خلاصة من التاريخ القديم" وذلك عام 1939، (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، صفحة 8). واعتمد في ذلك على المصادر العربية وخاصة مؤلفات ابن خلدون، والطبري (تاريخ الأمم والملوك)، ومن خلال الاطلاع على بعض الكتابات الرومانية واليونانية الخاصة بالتاريخ القديم، من خلال مشاهداته للآثار القديمة (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، صفحة 123).

ونكتشف أن الثعالبي كان يتميز عن غيره من المؤرخين الذين كتبوا حول التاريخ القديم للمنطقة على غرار البشير صفر (مفتاح التاريخ،)، و محمد مبارك الميلي (تاريخ الجزائر في القديم و الحديث) و عثمان الكعاك (موجز التاريخ العام للجزائر) ، وعبد الرحمن الجيلالي (تاريخ الجزائر العام)، ونلحظ تميّز الثعالبي عن هؤلاء المؤرخين من خلال أنه اعتمد منهجا يقوم على أساس أصول التاريخ وفلسفته،من حيث الكشف عن عوامل الرقيّ وأسباب السقوط ، وأثر طبائع الأمم في الحضارة، وأثر التربية والروح القومية والعصبية، والبحث في مسائل التفاعل الحضاري بين الأمم، ودراسة المعتقدات الدينية القديمة، وأثر الدين في السياسة، وبشكل يؤدي إلى استخلاص القوانين والنظريات.

2- اعتراضه على دعاوى الغربيين المشككة في أصول المغاربة وهويتهم.

وبالعودة إلى أهمّ ما تطرق الثعالبي إليه في كتاباته حول "التاريخ القديم" ، نكتشف بشكل جليّ ردَّه على دعاوى الغربيين المشككة في الأصول العربية لسكان اليمن واعتبارهم من الدراودة (Les Drairdiens) وهم من جنس الملايو بالهند وسنغفورة، وأفرد لذلك قسما خاصا، ومما جاء فيه: ((لم يكن تاريخ اليمن أغمض على الباحثين من الأقطار العربية الأخرى بل كان صحيفة لامعة من سفر الحضارة العربية رغم ما يبديه البعض من مستشرقة الألمان من التخرصات الغربية بقولهم أن سكان العربية السعيدة ليسوا من السلائل العربية بل هم جيل آخر اتصل بالعرب اتصالا خفيفا ومن الظلم للتاريخ أن يلتصقوا بهم)) (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، صفحة 203) ، وكان الثعالبي قد أورد الدلائل الأثرية، والتاريخية، واللغوية، وأثر البيئة على السكان وفق مبدأ ابن خلدون (خلدون، 2007، صفحة 89)، وبشكل يثبت الوجود العربي في اليمن منذ أقدم العصور و إلى ما قبل عام 3000 قبل الميلاد، ودفاع الثعالبي عن عروبة اليمن من باب دفاعه عن الانتماء العربي والشرقي لسكان شمال إفريقيا باعتبار أن أصولهم تمتد إلى اليمن، ووفدوا إلى المنطقة المغاربية عبر هجرات متوالية سبقت الفتح العربي الإسلامي للمنطقة .

ومن هذا المنطلقات كانت غاية الثعالبي الوصول إلى دحض دعوى الاستعمار الفرنسي التي تزعم بأن أهل المغرب العربي من أصل غربي، لغرض التشكيك في أصولهم، خدمة لاستراتيجية التفرقة والتجزئة، وكان تأكيد الثعالبي على الأصول الشرقية العربية للمغاربة، من خلال توضيحه لفكرة أن المنطقة من قديم العهود تغذيها عنصرية عربية عن طريق الهجرات المتتالية، حتى قبل مجيء الفينيقيين إلى المنطقة، ثم إن هؤلاء أيضا من أصول شرقية عربية، ولخص ذلك في قوله: ((إن خميرة الأمة الإفريقية هم من الفينيقيين وهم بلا شك عرب أقحاح وقد كانوا امة تجارة وسياحة ترتاد أساطيلهم الشواطئ للبحث عن الأسواق ولكن تاريخ الاتصال الرسمي بين إفريقيا وبلاد العرب الذي استقر وتشكل في البلاد سابق لهذا العهد ويرجع إلى ثلاثة آلاف سنة)) (الجندي، 1984، صفحة 44) .

ودافع الثعالبي عن وطنية سكان المغرب القديم، واعتبر تحالف الملك النوميدي "ماسينيسا" مع الرومان ضد قرطاجة واسقاطها عام 146 قبل الميلاد بأنّه لم يكن يعني بمصطلح عصره "استبدال سيد بسيد"، لكنه اعتبر ذلك من الأخطاء التي وقع فيها سكان المغرب القديم بسبب عدم التبصر وشبه ذلك بتحالف العرب المشارقة مع الغرب ضد الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، ونفى فكرة استكانتهم وخضوعهم للأجنبي من حيث عرضه لتاريخ مقاومتهم للاستعمار الروماني وبالخصوص مقاومة الملك يوغرطة (Jurgurtha) (160 ق م-104 ق م) خلال النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، الصفحات 23-33)وانظر كذلك (salluste, 2017, pp. 14-18)

وفي نفس هذا السياق وعلى صعيد آخر قدم الثعالبي عملا مهمًا في سبيل تبيان زيف النظرية القائلة بأن شمال إفريقيا بلاد مسيحية رومانية، وأن العرب احتلوا المنطقة ودمّروا مدنية الرومان مما يعني أن الفرنسيين استردوا المنطقة لغاية تتمثل في إعادة مجد الحضارة الرومانية (الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا ، 1990، صفحة 18) وكشف عن ذلك من خلال عرضه

للتوجهات الإيديولوجية لمناهج التعليم الفرنسي، والتي تقوم على أساس تزييف الحقائق التاريخية، وبشكل يؤدي إلى تشويه التاريخ العربي الإسلامي لتونس، ومما أورده في هذا الشأن أن أساتذة المدارس من الفرنسيين كانوا يؤلفون كتب الدراسة، وفيها كتب التاريخ العربي والتي تروج لفكرة أن المنطقة المغاربية هي موطن البربر، ثم جاء الرومان وجعلوا منها جنة فيحاء، فلما جاء العرب خربوا ودمروا فأبادوا هذه الجنة، وأقاموا مقامها الخراب والدمار، وهكذا كانت الناشئة التونسية لا تعرف شيء من تاريخ الإسلام والعرب، وما عُرِف كان مشوهًا، ثم إنّ المدرسين الفرنسيين لا يقبلون بالمناقشة خارج هذا الإطار (الجندي، 1984، صفحة 178).

وكان ردّ الثعالبي على هذه المسالة من خلال كتاباته التاريخية حول المنطقة المغاربية وبشكل يؤدي إلى إبراز مسالة الوجود الروماني في شمال إفريقيا على انه ظاهرة استعمارية عدوانية لا تختلف عن الاستعمار الأوربي الحديث، ومن جهة أخرى عمل على توضيح ظاهرة البناء الحضاري العربي الإسلامي في المنطقة، وفي هذا الإطار جاء في سياق حديثه عن الفتوحات الإسلامية للمنطقة: ((ذلك ما خربته الكاهنة وليس العرب كما أرجف به دجاجلة المؤرخين الذين يريدون طمس معالم التاريخ لغاية عارية من الشرف ولرد مفترياتهم سنتعرض في غضون هذا الكتاب لما عمره العرب بعد التخريب كشفا للحقائق وإنصافا للأجداد من التاريخ المصنوع)) (الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، 1986، صفحة 37) .

ونشير إلى أن الثعالبي من خلال نقده للنظريات الاستعمارية، نجده إلى جانب تفسيره للوقائع التاريخية يستند إلى تشريح الواقع الاستعماري، لغرض كشف السياسات الاستعمارية التي كانت تساير أطروحاتهم ومبررات غزوهم لأقطار المغرب العربي، والممارسات التي تتنافى تماما مع الأخلاق والحضارة ومبادئ العدل والمساواة وحقوق الإنسان وذلك في إطار كشفه عن خلفيات وأبعاد الظاهرة الاستعمارية وركز خاصة على تشريح ظاهرة الاستعمار الفرنسي بتونس في كتابه الشهير " تونس الشهيدة "(La Tunisie martyre. Ses Revendications)، والذي اصدره بباريس عام 1920 (Balek, 1920, pp. 51-77).

ومن خلال " تونس الشهيدة" كشف الشيخ الثعالبي عن البعد الصليبي للظاهرة الاستعمارية، ومن ذلك قوله: ((ومهما يكن نفورنا وتأسفنا فإن من واجبنا أن نوضح الصفات الحقيقية للاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية، إنه صراع حتى الموت وحرب صليبية موجهة ضد مجتمعنا)) (الثعالبي، تونس الشهيدة ، 1984، صفحة 167).وفي سياق متصل بين بأن البعد الصليبي للاستعمار جعل منه ظاهرة عنصرية وعدوانية واستغلالية، ومن هذا المنطلق جاء تفسيره لحقيقة نظام حكومة الحماية الفرنسية بتونس من حيث أن هذه الأخيرة انتهجت سياسة ترمي إلى هدفين اثنين ((فهي من جهة سياسة إرهابية تعسفية، ومن جهة أخرى سياسة امتيازات ونهب وقد نشأ عن ذلك انقسام السكان انقساما لا رجوع فيه إلى طبقتين : طبقة مدللة ذات امتيازات وهي صاحبة القول الفصل فيما يتعلق بالقرارات الحكومية،وبالتالي فيم يتعلق بمصير البلاد فهي إذن — الطبقة الغالبة – أو الجنس الأعلى الذي يضم الفرنسيين والى حد ما الأوربيين، وطبقة أخرى ضعيفة ومستغلة ومضطهدة ومحرومة من جميع الحقوق المعترف بها لبني الإنسان، فهي إذن – الطبقة المغلوبة– أو الجنس

الأسفل،وقد ولّدت هذه الوضعية في الطبقة الأولى القسوة والوقاحة واحتقار كل ماهو أهلي)) (الجندي، 1984، صفحة 269) .

3– مناهضته للصهيونية

إن المشروع الصهيوني المقترح للمسالة اليهودية جزء لا يتجزأ من العملية الاستعمارية الغربية، فالصهيونية ظاهرة استعمارية وذات صلة وثيقة بالفكر الغربي، وبشكل خاص فهي ترتبط بمعتقدات مايعرف "بالصهيونية المسيحية" (de Luca, 2011) كما ارتبطت الصهيونية كذلك بمعتقدات الاصلاح الديني الحديث في اوربا والتي عرفت بالبروتيستانتية (Le Protestantisme) (Alfred, 1905, p. 103) ، والتي تؤمن بأن قيام دولة إسرائيل ضرورة حتمية لأنها تحقق نبوءات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وتشكل المقدمة لمجيء المسيح الثاني إلى الأرض كملكٍ منتصر، وكان الاستعمار الأوربي قد مكّن للكيان الصهيوني في البلاد الإسلامية كون هذه الأخيرة كانت محتلة وضعيفة ومقسمة، وأن كلّ مشاريع القوى الاستعمارية كانت تصّب في خدمة النزعة الصهيونية منذ القرن نهاية القرن الثامن عشر (لورانس، 1998، صفحة 64) .

وكان الثعالبي مهتما بمناهضة الصهيونية منذ بداية تنفيذ مشروعها بفلسطين تحت إشراف إدارة الانتداب البريطاني، وكان يفّرق بين اليهود كطائفة دينية و الصهاينة أصحاب المشروع الاستعماري في فلسطين والذين اصطنعوا الحجج والبراهين وافتروا الأكاذيب على التاريخ، وذلك لأجل إثبات حقهم التاريخي في هذه البلاد، ومن منطلق الحجة التاريخية والحق الطبيعي كشف بأن مزاعم الصهيونية باطلة من منطلق أن الوجود العربي سابق للوجود اليهودي في فلسطين (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 29).

ولم يكن ما ذهب إليه الثعالبي بعيدا عن الحقيقة، ومن ذلك انه توجد نصوص في أسفار العهد القديم تدل على أن فلسطين بلاد غريبة على اليهود وهي أرض الكنعانيين أسلاف الفلسطينيين ومن بينها النّص التالي: ((وسكن يعقوب في ارض غربة أبيه في أرض كنعان))(سفر التكوين : 21 : 34)، وإذا كان الوعد الغامض والذي ورد في سفر التكوين: ((لنسلك أعطي هذه الأرض،من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات))(سفر التكوين 17:15) وهو الوعد المقطوع لأسباط إبراهيم بأرض الميعاد الممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات، هو في الحقيقة وعد قطعه الله لنسل إبراهيم في جميع أرجاء المعمورة قبل مولد إسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وعلى ذلك فهو وعد مقطوع للعرب واليهود من أبناء إبراهيم جميعا ولم يقطع بأن أرض الكنعانيين هي لليهود وحدهم، وكان الثعالبي يدرك بأن الفكر الصهيوني ولد في الغرب من حيث تبيانه لسعي أقطاب الصهيونية في عواصم أوربا لعقد المؤتمرات الكبرى التي تجمع مختلف الأطراف الفاعلة من مختلف أنحاء العالم، ومن ذلك قوله: ((والصهاينة في كافة أنحاء العالم يعقدون مؤتمرا جامعا كل عام في إحدى مدائن الغرب، ويهرعون إليه من أطراف الأرض مئات وألوف، وفيهم العلماء والأغنياء من أصحاب الملايير، وفيهم الشبان والشيب والنساء والرجال من كل داهية محنك لتجسد مشروعهم)) (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 51).

وتنبه الثعالبي إلى المخططات الصهيونية ومن ذلك أنه حذّر من سياسة تهويد القدس وكشف عن مآرب هذه السياسة،وخاصة فيم يتعلق بإخراج المسلمين من ديارهم في القدس ، والاستيلاء على المسجد الأقصى ، وتحويله إلى كنيس يهودي نكاية في المسلمين، واعتبر سياسة التهويد فكرة قديمة،وبين أن هذه السياسة لم تكن ممكنة إلا بعد الانتداب البريطاني الذي جسّد سياسة استعمارية متعددة الجوانب تؤدي في النهاية إلى تحقيق هذا المشروع (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، الصفحات 69-75) والواقع أن ما ذهب اليه الثعالبي حول مسالة " تهويد القدس " واستشعاره لمكن ذلك الخطر أكدته الاحداث التاريخية اللاحقة،حيث سارع الصهاينة الى احتلال القدس الغربية وتهويدها منذ اليوم الاول الذي أعلن فيه إنهاء الانتداب البريطاني عام 1948، ذلك أن مشروع التهويد في فلسطين عموما يعد إحدى الركاز الاساسية للصهيونية والتي ترى في فلسطين أرض " الميعاد"، وهي حسب تعبير" ثيودور هرتزل": ((الوطن التاريخي الخالد في الذاكرة أبد الدهر)) (ثيودور، 2007، صفحة 66) .

وعمد الشيخ الثعالبي إلى تبيان آليات التغلغل الصهيوني في فلسطين حيث كشف عن سعي الصهيونية إلى التمكن من استغلال وتوظيف ثالوث (القوة ، والدعاية ، والمال) ، كما كشف عن الشخصيات الفاعلة في ذلك خلال فترة الثلاثينات من القرن العشرين، ومن بينهم الزعيم الصهيوني "سوكولوف" والذي وصفه بالجبار، و"روتشيلد" الذي اعتبره رب المال وأحد مديري دفته في العالم، وأشار إلى أن داهية الصهيونية يتمثل في شخص "ويزمان"، وفي هذا الإطار بين بأن نشاط الصهيونية كان عبر مؤسسات منظمة تعمل على تحقيق أهدافها تحت مظلة الانتداب البريطاني، نذكر منها "شعبة المعارف اليهودية" وهي بمثابة مؤسسة تربوية تقوم بتربية الناشئة على المبادئ الصهيونية و الاستماتة من أجلها وكره العرب من جهة أخرى، وهناك مؤسسات خاصة بانتزاع الأراضي من الفلسطينيين و تحصيل المال من جميع يهود العالم وتدريب اليهود على شؤون التجارة والاقتصاد،ومؤسسات أخرى سياسية ودعائية تنفذ الخطط الصهيونية وتتجسس على العرب (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، الصفحات 94-99).

ومن الأدوات الفاعلة التي كشف عنها هي توظيف العرب من طرف الصهيونية من أجل تجسيد مشروعها ، وبيّن بأن ذلك كان يتمّ عبر أطراف عدة شملت رجال السّياسة الخاضعين لوصاية الاحتلال البريطاني، وبعض شيوخ الأزهر، وبعض الأحزاب والصّحف العربية، وكان منطلق الثعالبي في ذلك هو أن عملاء الصهيونية والغرب من العرب هم أكثر الأدوات خطرا حيث أن الأقطار الإسلامية المستعمرة اعتادت ((أن ترى معاول الهدم من مقابض أيدي أولئك المفترسين لا في أيدي مأجور يهم من أبنائها،ولئن كانت إلى جانب أيدي أولئك بالفعل فإنها لا تبدوا في وضح النهار بل تعمل في خفاء وتستر اتقاء التشهير والفضيحة ولكن أيدي المعارضين في فلسطين تعمل لتقويض كيان أمتها علنا بلا خوف ولا تستر)) (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 27).

وفي هذا الإطار بين الثعالبي مسألة اعتماد الصهيونية على "سياسة التفاهم" مع العرب من حيث إيجاد عملاء منهم للتفاهم معهم والاستعانة بهم، وذكر الوقائع والأحداث التي تبرهن على ذلك من بينها الزيارات المتبادلة بين والدكتور الصهيوني "أرلوزوروف" رئيس الوكالة اليهودية والجمعية الصهيونية في فلسطين و "راغب بك النشا شيبي"رئيس بلدية

القدس في عام 1930، واستدل الشيخ الثعالبي على عمالة هذا الأخير من خلال عمله الدعائي للصهيونية من حيث إشادته بمزايا اليهود وصلابتهم في بناء قوميتهم رغم ما أصابهم من – محن- عبر التاريخ ؟! (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 97) .

وبيّن الشيخ الثعالبي حقيقة " التفاهم" الذي يجنح إليه الصهيونيين مع العرب من حيث أنه مجرد "تفاهم صوري" فقط يقوم على دعائم الخداع، وغايته إحداث قابلية لدى العرب للتعايش مع الوطن القومي الصهيوني، وكانت الطرق المعتمدة في استمالة العرب هي المال، من خلال شراء ذممهم ليكونوا مرتزقة ومنحهم بعض المناصب الإدارية كما حصل في الانتخابات البلدية لعام 1927، حيث تم تعيين عدد من منهم لإدارة بلديات فلسطين وعلى رأسها القدس، وبين مخاطر تلك السياسة والتي تتمثل في صدع صفوف الفلسطينيين وإضعاف دورهم في المقاومة (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، الصفحات 102-111).

وإذا كان الثعالبي قد كشف عن إحدى وسائل التغلغل الصهيوني في فلسطين والمتمثلة في توظيف العرب، فانه من جهة أخرى أوضح أيضا إحدى حقائق القضية الفلسطينية والمتمثلة في سلبية العرب والمسلمين عامة في التعامل مع الاستعمار الصهيوني، وذكر في هذا الموضع أحداثًا وقضايَا كثيرة تخلصُ في النهاية إلى أن المشروع الصهيوني كان يستند بشكل أساسي إلى دور أطراف عربية وإسلامية من حيث أن بعضهم كانوا مرتزقة ومتآمرين، وآخرون متخاذلين أو غافلين.

ويلاحظ أن الثعالبي كان يوثق كلامه في كشف العمالة والتخاذل العربي من خلال الاستناد إلى أحداث بعينها ليقيم الحجة والبينة،ومن ذلك أنه عرض الحجج الدامغة التي تكشف بأن شيخ الأزهر الأحمدي الظواهري،لم يكن له أي اهتمام بالقضايا الإسلامية وذلك من خلال حوار أجراه معه في 13أكتوبر1931، وبين بأن موقف شيخ الأزهر المتخاذل ما هو إلاّ موقف "إسماعيل صدقي باشا"رئيس الحكومة المصرية والذي اعتبره مجرد آلة من آلات الحكومة البريطانية ،كما عبّر الثعالبي عن استيائه من تصرفات الزعيم الاسلامي الهندي "شوكت علي" و كشف عن علاقته بالصهيونية من خلال نقله لما دار بينه وبين الزعيم الصهيوني " ناحوم سوكولوف" (Sokolow Nahum) من حوار في لندن عام 1931، وأكّد من خلال ذلك استجابة هذا الشخص إلى سياسية التّفاهم مع العرب التي تريدها الصهيونية من أجل تحقيق مشروعها ، حيث بيّن الثعالبي كيف أن هذا الشخص يقبل بالوجود الصهيوني وبشكل يتم بالتفاهم مع العرب، بهدف تحقيق السّلم ، ولعل الثعالبي عجز عن إيجاد التعبير المناسب لوصف طبيعة العلاقة بين العملاء العرب والصهاينة، فعرض نصوصًا مطولة لهذا الحوار والذي نكتشف من خلاله وكأن تلك العلاقة هي علاقة –صداقة وأخوة- (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، الصفحات 120-123) .

وأمام هذا الواقع و من أجل التصدي لخطر الاستعمار الصهيوني بلور الثعالبي استراتيجية لا تقوم على تقديم الحلول النظرية فحسب، بل تجاوز ذلك إلى طرح مشاريع واقعية انطلاقا من تجارب ناجحة في تاريخ المقاومة، ومن بينها الاعتماد على سياسية مقاطعة المصالح الصهيونية وعلى رأسها سلعهم التجارية، واعتبر تلك السياسية سلاحًا فعالا، واستدل على

ذلك بأحداث 1929 في فلسطين، والتي قاطع فيها الشعب الفلسطيني بضائع اليهود في إطار المقاومة، وترتب عن ذلك هزة اقتصادية وسياسية أفزعت الصهاينة، وأجبرت حكومة الاستعمار البريطاني للتدخل وحسم الأمر بالقوة لصالحهم في النهاية (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 108).

كما نبه الشيخ الثعالبي إلى مسالة مهمة في المقاومة والمتمثلة في ضرورة الاعتماد على المسيحيين العرب كسند مهم للقضية الفلسطينية، حيث ذكر بالدّور المشرف للمسحيين الفلسطنيين الذين وقفوا إلى جانب العرب المسلمين ضد المشروع الصهيوني (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 117)، وكان يمثّل ذلك دعوة صريحة للفلسطينيين بالاعتماد على الذات وتنويع أشكال المقاومة المختلفة للتجاوب مع قوة التحدي الذي فرضه الغرب الاستعماري الصهيوني.

وفي سبيل عضد ساعد المقاومة الفلسطينية، بذل جهدا في الدفاع عن رموزها وعلى رأسهم مفتي القدس "الحاج أمين الحسيني" (1897-1974) مزكيا جهوده المتمثلة في استشارة أهل الدين والعلم والرأي في فلسطين وعدة أقطار من العالم الإسلامي، لبحث سبل مواجهة الصهيونية.

ولما كانت قضية فلسطين قضية إسلامية، انصب تركيز الثعالبي على ضرورة انعقاد مؤتمر إسلامي جامع يتوخى بيان الأخطار والأضرار التي تنجم عن تمكن اليهود من فلسطين، والوسائل التي يجب اتخاذها لصدهم، ولذلك كان مناصرا لفكرة عقد مؤتمر إسلامي بالقدس يكون ممثلا لمختلف الشعوب الإسلامية غايته نصرة القضية الفلسطينية. وبشكل يضفي عليها طابعها الديني، إذ أنه كان يدرك لما لهذا الأخير من أهمية بالغة من حيث انه يعتبر عامل محرك للشعوب.

ومما يلاحظ أن فكرة دعوة الثعالبي إلى عقد مؤتمر إسلامي جامع للبحث في مشاكل العالم الإسلامي كان في وقت مبكر من حياته السياسية والإصلاحية، وذلك خلال زيارته للأستانة عام 1897، (الثعالبي، سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية، 1995، صفحة 28)، كما ان تلك الفكرة نابعة أيضا من صميم مشروعه الوحدوي الذي بلوره منذ عشرينات القرن العشرين، والذي يقوم على فكرة أن الوحدة مبدأ أساسي لسيادة الأمم، كونها تجعل من الأمة ذات حسّ واحد وتأثر متحد، فتتمكن بذلك من مد سيادتها والقيام بمقاومة من يهدد كيانها، ويرى أن الأمة الإسلامية مستعدة لان تسود، أي فيها قابلية للسيادة من منطلق أن دين الإسلام دين توحيد شامل، و هذا المنطلق ناقش الثعالبي مختلف العناصر التي توحد بين أفراد الأمة كاللغة، والانتماء العرقي والجغرافي، ووحدة الأنظمة والقوانين بغرض إثبات فكرة أن الجامعة الدينية هي الوحيدة التي يمكنها أن تربط عدة مجتمعات، باعتبار أن الرابطة الدينية تكفل توحيد الميول والأفكار والإحساسات ليصل بذلك إلى إثبات فكرة أن الإسلام جاء بأسهل مبادئ الوحدة بين البشر، واستدل في ذلك على النصوص الشرعية وواقع التاريخ الإسلامي ، والذي تساوى فيه" العربي"، و"الفارسي، و"البربري"، واجتمعوا تحت راية واحدة مدة من الزمن على أساس الفكرة التضامنية التي نشأت مع ظهور الإسلام، وهي الفكرة التي قامت على أساس اتحاد كل من دخل ملة الإسلام في المصلحة العامة واشتراكه في النفع العام و بشكل يحقق التساوي بين الناس في الحقوق

الشخصية والسياسية والتشريعية والتنفيذية، ثم إن وحدة التعاليم الإسلامية تعتبر من أهم العناصر المكونة لعظمة الأمة والركيزة الأساسية لوحدتها الاجتماعية والسياسية (الثعالبي، محاضرات في التفكير الاسلامي والفلسفة، 1999، الصفحات 27-34).

وكان للثعالبي دور أساسي في عقد المؤتمر الإسلامي في 07 ديسمبر 1931 وقد شهد مفتي القدس "أمين الحسني" للثعالبي بفضله على هذا المؤتمر من خلال رسالة وجهها إلى أعضاء الحزب الدستوري التونسي بتاريخ 18 أكتوبر 1931،ومما جاء فيها مايل: ((ولا نغالي إذا قلنا إن حضرته أصبح بفضل عمله الغزير وجهاده المنقطع النظير، رجل المسلمين والعرب جميعا لا رجل تونس الخضراء وحدها، وإن لسيادته الفضل الكبير في القيام بمهمة عقد هذا المؤتمر الإسلامي العام الذي نرجو منه الخير لهذه البقاع المشرفة في هذه البلاد المقدسة وللمسلمين عامة)) (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 19)،وفي رسالة أخرى موجهة إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي بتاريخ 20 جانفي 1932 ، يقول فيها لهذا الأخير: ((أنتم أدرى الناس بأن من غايات المؤتمر الذي كان لكم الفضل الأكبر في إنجاحه، يشكل مركز إسلامي قوي يعضده العالم الإسلامي ...)) (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 19).

وكان الشيخ الثعالبي يرى أن المؤتمر يعتبر ضربة قاضية على آمال الصهيونيين ويعطل نشاطهم، لأن غايته ستكون الدفاع عن البقاع المقدسة في القدس وأرض فلسطين وإبعاد السيطرة الاستعمارية الصهيونية، وسيكون كل عضو من المؤتمر لسان صدق في قومه وبلاده بالأخطار التي تهدد الإسلام وتكتسب القضية الفلسطينية صبغة إسلامية عالمية وتصير فلسطين قبلة الأنظار في العالم الإسلامي (الثعالبي، خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988، صفحة 114).

إن حرص الشيخ الثعالبي على أن يكون المؤتمر الإسلامي في فلسطين ممثلا لجميع الشعوب الإسلامية في العالم بدون استثناء، ثم الداعية له والعمل في سبيل انجاحه، وتذليل العقبات التي تعترضه، كان منطلقه هو أن القضية الفلسطينية ليست قطرية بحتة، وإنما هي قضية كل مسلم على وجه الأرض، وهو أمر يوجبه الشرع هذا من جهة، ومن جهة أخرى إعطاء القضية أهمية بالغة تكون في مستوى التحدي الذي تفرضه الصهيونية، إذ هي كذلك تعتمد في دعوتها وقوتها على جميع يهود العالم كما أنها تعتمد على المؤتمرات.

خاتمة

كان للشيخ عبد العزيز الثعالبي مشروعا لمواجهة التحدي الغربي الاستعماري، وفي هذا الإطار يمكن القول بان كتاباته تندرج ضمن الرد على أطروحات الغربيين عموما، وقد اعتمد اساسا في الرد على الاطروحات الاستعمارية على المنهج التاريخي الخلدوني، والدعاية السياسية المضادة، وتقديم البراهين والحجج التي تكشف الحقائق وتفند المزاعم المغرضة.

كما ان هذا الدور الذي قام به يعتبر إنصافا لتاريخ المنطقة المغاربية، والتأكيد على ذاتيتها وبعدها الحضاري، فالثعالبي برهن على مدى إدراكه للتوجهات الاستعمارية التعليمية والثقافية والدينية الرامية إلى امتصاص هويتها الشرقية العربية

الإسلامية وجعلها أمام الواقع فرنسية في كل شيء، كما يظهر بشكل جلي تلك النظرة الثاقبة للثعالبي في مواجهة الاطروحات الاستعمارية في جوانبها المختلفة من حيث تبيانه لآليات تنفيذها.

واذا كانت الصهيونية تندرج ضمن المشروع الاستعماري فان الثعالبي قد حذَّر في وقت مبكر من خطر تهويد القدس، وبين أحد الأوجه الخفية لحقيقة القضية فلسطين والمتمثلة في التآمر الغربي من جهة و تخاذل ساسة العرب والمسلمين، وقد عبرت آراؤه عموما عن عمق الاستراتيجية الخاصة بمواجهة المشروع الصهيوني والتي تعتمد اساسا على ضرورة الاعتماد على الذات والمبادرات الفعالة في اطار التعاون والتضامن الاسلامي.

قائمة المراجع:

المراجع بالعربية

1. أمحمد مالكي. (2007). صورة المغرب العربي في الكتابات الاستعمارية. أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي المنعقد بالجزائر 2006 (الصفحات 165-208). الجزائر : ،منشورات وزارة المجاهدين .
2. أنور الجندي. (1984). عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية 1879-1944. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
3. عبد الرحمن بن خلدون. (2007). مقدمة ابن خلدون. القاهرة : دار الغد الجديد.
4. عبد العزيز الثعالبي. (1984). تونس الشهيدة . بيروت : دار الغرب الإسلامي.
5. عبد العزيز الثعالبي. (1986). مقالات في التاريخ القديم. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
6. عبد العزيز الثعالبي. (1988). خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس. بيروت : دار الغرب الإسلامي.
7. عبد العزيز الثعالبي. (1990). تاريخ شمال إفريقيا . بيروت : دار الغرب الإسلامي.
8. عبد العزيز الثعالبي. (1995). سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية. بيروت : دار الغرب الإسلامي.
9. عبد العزيز الثعالبي. (1999). محاضرات في التفكير الاسلامي والفلسفة. بيروت : دار الغرب الإسلامي.
10. غزال ستيفان. (2007). تاريخ شمال افريقيا القديم. ج1. الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.
11. هنري لورانس. (1998). ، بونابرت والدولة اليهودية. القاهرة : دار مصر العربية.
12. هيرتزل ثيودور. (2007). الدولة اليهودية . القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
13. يوسف مناصرية. (1988). الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934). بيروت : دار الغرب الاسلامي.

المراجع بالأجنبية

1. E. Rouard, c. (1906). Traités de l’Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc. Paris: A,Pédone Éditeu.
2. Alfred, B. (1905). L'Eglise Catholique La Renaissance Le Protestantisme. Paris: Librairi Ebloud.
3. Balek, R. (1920). La Tunisie après la guerre (problèmes politiques). paris: Publication du Afrique Française.
4. Bessis, J. (1997). Maghreb Traversé du Siècle. paris : L’harmattan.
5. Djait, H. (1975). la personnalité et le devenir arabo-islamique. paris.
6. Julien, C.-A. (1967). Colons français et Jeunes-Tunisiens (1882-1912). Revue française d'histoire d'outre-mer, 54(n°194-197), pp. 87-150.
7. salluste. (2017). La Guerre de Jugurtha. paris: éditions allia.

مراجع الكترونية

- de Luca, M. (2011). Le développement historique du « sionisme chrétien » moderne. Récupéré sur https://larevuereformee.net: https://larevuereformee.net/articlerr/n259/le-developpement-historique-du-%C2%ABsionisme-chretien%C2%BB-moderne. Ce site est enregistré par la Bibliothèque Nationale de France avec l'ISSN suivant : 1777-5698 pour l'édition web.